



المنهج التربوي في مدرسة اهل البيت (ع)

پدیدآورده (ها) : بن علی، الاسعد

میان رشته ای :: المنهج :: بهار 1375 - شماره 1

از 280 تا 295

آدرس ثابت : <http://www.noormags.ir/view/fa/articlepage/208611>

دانلود شده توسط : رسول جعفريان

تاریخ دانلود : 10/04/1395

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) جهت ارائه مجلات عرضه شده در پایگاه، مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تالیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صفحه [قوانين و مقررات](#) استفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.



پایگاه مجلات تخصصی نور

المنهج التربوي في مدرسة أهل البيت

الأسعد بن علي *

تحاول العلوم الإنسانية الإجابة عن إشكالات تتعلق بالسلوك: ما السلوك؟ ما مناشئه؟ كيف نفسره؟ ما مواصفات السلوك السوي؟ ما مظاهر السلوك المرضي؟ الخ...

طرحت نظريات كثيرة في هذا الاتجاه. ولكن الكثير منها أخذت المفاهيم السلوكية إلى نظريات أحادية (المثير والاستجابة، الغرائز، الدوافع...) في الوقت الذي يتذرع تفسير ظاهرة معقدة كالسلوك الإنساني الذي يخضع للإرادة الحرة للفرد تفسيراً ميكانيكياً.

لذلك، فإن التفسير الواقعي هو الذي لا يعزل السلوك عن بقية جوانب الشخصية، ويحاول دراسته بلحاظ أبعاد الشخصية جمیعاً. ولا شك أن البحوث التربوية الحديثة باتت متقدمة تقریباً على أن لشخصية الإنسان وحدة تركيبية تستقطب أبعاداً ثلاثة هي: أ) - البعد المعرفي. ب) - البعد الوجوداني. ج) - البعد السلوكي.

وبالبعدان الأقلان يشكلان البناء التحتي للسلوك ومظاهره، فكل سلوك نتاج تفاعل عناصر المضمون العقائدي الفكري والمحتوى العاطفي الروحي. ليس السلوك ظواهر منعزلة تدرس بمنأى عن البعدين الأول والثاني، لأن مواقف الفرد وتصرفاً تتكيف وفق المفاهيم المنتسبة عن القاعدة الفكرية للشخص وحسب طبيعة المشاعر والاحاسيس التي تتماهي بدورها مع تلك القاعدة الفكرية. من هنا انطلق المنهج الإسلامي في تربية الفرد والمجتمعات من تجدير الوعي العقائدي قبل كل شيء لأنه يشكل الخلفية والعمق الفكري للشخص، ثم سعى لتنمية الحس العاطفي الوجوداني بجملة من المفاهيم التي

غذتها بآيات معنوية روحية، ومن بعد ذلك وجه الفرد إلى مجموعة من القيم السلوكية العملية.

ولقد حرص أئمة أهل البيت(ع)، استناداً إلى هذا الأساس المنهجي، على أمررين أولهما إعداد أصحابهم وأنصارهم ليكونوا طليعة متقدمة في المجتمع تتمثل قيم الإسلام وتجسدها.

وثانيهما طرح منهج سلوكي لا ينبع من فراغ أو من ترف فكري بقدر ما يعبر عن حاجة ماسة للإنسان فرداً ومجتمعاً في امتلاك مثال للذات المتوازنة الكاملة.

ليست أزمة العصر، في جوهرها، أزمة في النظم الاقتصادية ولا في طبيعة النظام العالمي ونوعية العلاقات الدولية السائدة، وإن كان كل ذلك يشكل وجهاً من وجوهها، وإنما هي فشل المدارس الفكرية والفلسفية في بناء الإنسان الذي يعيش التوازن بين حاجاته وحاجات مجتمعه القادر على تفعيل كرامته الروحية وقابلياته المعنوية وميوله النفسية قصد بناء المحتوى الداخلي القادر على إرساء معالم حضارة إنسانية لا حضارة الوحوش الكاسرة والشهوات الجامحة.

ولذلك أفلست فلسفات اللذة، ولم تتجاوز في مسعها الحدود الماهوية للحيوانية في ذات الإنسان وألغت كل القابليات المعنوية في الإنسان، وذلك النزوع داخله نحو الخلود والكمال. ويعبّر «فروم» عن هذه المفارقة قائلاً: «وأحرى بضميرنا أن ينتابه القلق ونحن نشهد أنفسنا تزداد تجرداً من إنسانيتنا كلما ازدادنا اقتراباً من حالة السوبرمان: الإنسان الأعلى»^(١) ويعبّر بشدة عن ضرورة الإطار التوجيهي للإنسان حتى تكون حياته معنى «.. فإنه أي النوع الإنساني بحاجة إلى إطار للتوجيه، بحاجة إلى موضوع يكرس من أجله حياته كي يستطيعموا مواصلة الحياة»^(٢).

أسس المنهج السلوكي عند أهل البيت:

يقوم المنهج السلوكي عند أهل البيت (ع) على الأسس التالية:

- ١) إرساء البنية العقلية.
- ٢) تجذير التركيبة العاطفية.
- ٣) طرح معايير سلوكية.
- ٤) تقديم نموذج القدوة الصالحة.

١ - إرساء البنية العقلية: إن الوعي العقائدي الذي يقوم على جملة التصورات عن الكون والإنسان والحياة يشكل أساس المحتوى الداخلي للفرد. ولقد حرص أئمة أهل البيت (ع) من خلال توجيهاتهم أن يؤسسوا لوعي عقائدي متماشٍ يبدأ من المبدأ (التوحيد) إلى المنتهى: (المعاد); ليجعل مسيرة الإنسان وحركته بين المبدأ والمنتهى تمرّ من خلال (العدل) قيمة توحيدية تنزّه الذات الإلهية عن كل مظاهر الظلم، وضرورة نفسية تربوية تدفع الإنسان نحو تحقيق العدل والتوازن في شخصيته، وضرورة اجتماعية تصون مسيرة المجتمع من الانحراف عن الأهداف الواقعية للحياة.

كما تتوقف هذه المسيرة بين (المبدأ) و (المعاد) على (النبوة) و (الإمامية) عنوانين للقيادة الفكرية والسياسية والعقائدية للمجتمع على هذا الطريق اللاحب.

هكذا تشكل اللوحة الخمسية جوهر البناء العقلي في تركيبته الشخصية الرسالية في منهج أهل البيت (ع).

إن هذا الوعي العقلي ضرورة للسلوك القويم والأخلاق العالية. يقول أبو عبد الله الصادق (ع): «أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً»^(٣)، «العقل دليل المؤمن»^(٤)، «اعرفوا العقل وجنته والجهل وجنته تهتدوا»^(٥). وفي ضوء هذا التوجيه العقلي لا وزن للمظاهر التعبدية إن لم تستند إلى رشد ونضج عقليين.

فالمعرفة لها مركزيتها، وأعمال الإنسان التي لا تنبع من وعي معرفي، ومن بصيرة ثاقبة هي أعمال مهتزة سرعان ما يخبو الدافع نحوها، فتنطفئ

وتنحسر، أو تحرف، فتقود صاحبها إلى دوائر بعيدة كل البعد عن المقصود الأصلي.

عن الإمام الصادق(ع): «العامل على غير بصيرة كالسائل على غير طريق لا تزيده سرعة السير إلا بعده»^(١). وعنـه(ع): «من عمل على غير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه»^(٢).

وفي ضوء هذا التحليل للبعد الأول، في البناء التحتي للمنهج السلوكـي، نفهم حرص الأئمة على فقاـفة أصحابهم واستيعابـهم لمفاهيم الدين. عن الصادق(ع) «لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسـهم بالسيـاط حتى يتـفقـهـوا»^(٣). وعنـه(ع) قال له رجل: «جعلـتـ فـدـاكـ رـجـلـ عـرـفـ هـذـاـ الـأـمـرـ لـزـمـ بـيـتـهـ وـلـمـ يـتـعـرـفـ إـلـىـ أـحـدـ مـنـ إـخـوـانـهـ؟ـ قـالـ فـقـالـ:ـ كـيـفـ يـتـفـقـهـ هـذـاـ فـيـ دـيـنـهـ؟ـ»^(٤). وعنـه(ع) «ثـلـاثـةـ مـنـ عـلـامـاتـ الـمـؤـمـنـ:ـ الـعـلـمـ بـالـلـهـ وـمـنـ يـحـبـ وـمـنـ يـكـرـهـ»^(٥).

٢ - تجذير التركيبة العاطفـية: إن المفاهيم العقلـية، مهما أوتـيت من عـمقـ وـدـقـةـ، لا تـمـلـكـ أـنـ تـبـعـثـ فـيـ الإـنـسـانـ الطـاقـةـ الكـافـيـةـ ليـنـدـفـعـ فـيـ اـتـجـاهـ تـمـثـلـ تلكـ المـفـاهـيمـ.ـ منـ هـنـاـ كـانـتـ قـاعـدـةـ الـوعـيـ الـعقـائـديـ بـحـاجـةـ إـلـىـ إـطـارـ معـنـويـ منـ الـأـحـاسـيـسـ وـالـعـواـطـفـ يـشـكـلـ «ضـمانـةـ التـنـفـيـذـ»ـ لـتـلـكـ الـقيـمـ.

إن منهج أهل البيت(ع) يجعلـ منـ حـبـ اللهـ عـزـ وـجـلـ وـالـإـنـشـادـ إـلـيـهـ العـاطـفـةـ الطـاغـيـةـ عـلـىـ كـلـ مشـاعـرـ الفـردـ السـوـيـ وـالـشـخـصـيـةـ المـتوـازـنةـ،ـ فـتـجـدـ كـثـيرـاـ مـنـ الـأـحـادـيـثـ تـجـعـلـ سـيـماءـ الشـيـعـةـ بـصـورـةـ خـاصـةـ رـوـحـ التـخـشـعـ وـالتـذـلـلـ اللهـ جـاعـلـةـ مـنـ الرـخـمـ الـعـبـادـيـ وـالـانـقـطـاعـ إـلـىـ اللهـ جـوـهـرـ المشـاعـرـ وـالـأـحـاسـيـسـ الإـيمـانـيـةـ التـيـ تحـولـ قـلـبـ الـمـؤـمـنـ إـلـىـ وـطـنـ لـلـحـبـ وـالـشـوقـ وـالـجمـالـ.

إن حـبـ اللهـ هوـ سـرـ الإـحـسـاسـ الـخـلـقـيـ فـيـ الـحـيـاةـ،ـ وـهـوـ الـذـيـ يـحـولـ الـحـيـاةـ إـلـىـ مـلـحـمـةـ حـبـ وـعـشـقـ وـسـلـوكـ نـحـوـ اللهـ،ـ وـيـجـعـلـ مـنـ سـاعـاتـ الـصـرـاعـ الـاجـتمـاعـيـ وـالـبـنـاءـ الـحـضـارـيـ مـلـحـمـةـ عـبـادـيـةـ.

إنـ كـانـ الـمـسـتـوىـ الـعـامـ،ـ فـيـ الـوعـيـ إـلـاسـلـامـيـ،ـ قدـ طـرـحـ «ـجـنـةـ الـخـلـدـ»ـ

عنواناً مُحركاً للدّوافع الإنسانية والمشاعر العاطفية. فإن المستوى الخاص أصَّر، من خلال توجهات أهل البيت(ع) أن يجعل أساس الجنة العاطفية: حب الله عز وجل ومرضاته ورضوان من الله أكبر^(١١).

وهذا ما يؤكده قول الإمام علي(ع): «إن الناس يعبدون الله من ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه، فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وأخرون يعبدونه فرقاً من النار فتلك عبادة العبيد، وهي رهبة، ولكنني أعبده حباً له عز وجل فتلك عبادة الكرام...»^(١٢). عن الصادق(ع): «شيَّعتنا الرحماء بينهم الذين إذا خلوا ذكروا الله»^(١٣). وعن(ع): «إنما شيعة على العلماء الذيل الشفاه تعرف الرهبانية على وجوههم»^(١٤).

وعبر أمير المؤمنين(ع) عن هذه الحالة الشعورية المتوقدة في نقوس المتقين قائلاً: «... ولو لا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب».

٣ - المعايير السلوكية: إن أحاديث أهل البيت(ع) تمتلئ بمعايير عملية تميّز الذات الرسالية المؤمنة من غيرها. وبعض الأحاديث تتضاعد في لهجتها لتجد بعض السمات الظاهرة التي تعكس الزخم العبادي وروح التذلل الله معياراً للتصنيف، عن الصادق(ع): «كان علي بن الحسين(ع) قاعداً في بيته إذ قرع قوم عليه الباب فقال: يا جارية أنظري من بالباب؟ فقالوا: قوم من شيعتك، فوثب عجلان حتى كاد يقع. فلما فتح الباب، ونظر إليهم رجع وقال: كذبوا فأين السمت في الوجه؟ أين سماء السجدود؟ إنما شيَّعتنا(...)
المسبحون إذا سكت الناس، والمصلون إذا نام الناس، والمحزونون إذا فرح الناس، يعرفون بالزهد، كلامهم الرحمة، وتشاغلهم بالجنة»^(١٥).

تكشف هذه السمات أن الفرد تجاوز مستوى التقى ومستوى التفضيل، كما يسميها «كراشول» (Krthwool) ليبلغ مرحلة الالتزام التي يعتبرها أعلى درجات اليقين^(١٦).

و سنحازل، في ما يلي، أن نضبط أهم أصول الضوابط السلوكية من دون ذكر التفاصيل الدقيقة. و قبل ذلك لا بد من الإشارة إلى أن إثمة أهل البيت توحّوا تارةً أسلوب الإجمال وأخرى أسلوب التفصيل في بيان تلك المعايير، فعديدة هي الأحاديث التي توجز الكلام بعبارة واحدة: التقوى - الورع، مثلاً: عن أبي عبدالله(ع): «لا إيمان لمن لا ورع له». وعنـه(ع): «إذا أردت أن تعرف أصحابي فانتظر إلى من اشتَدَ ورعيه وخاف خالقه ورجا ثوابه وإذا رأيت هؤلاء فهوـلـاء أصحابـي»^(١٧).

وهناك نصوص أخرى تفصل هذه المعايير السلوكية فتعـد الصبر، والثبات، والحلم، والآباء، والإيثار، والصدق، واللين، والحزن..الخ.

وعن أمير المؤمنين(ع): «إن لأهل الدين علامات يُعرفون بها: صدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وصلة الرحم ورحمة الضعفاء وقلة المواتاة للنساء وبذل المعروف وحسن الخلق وسعة الخلق واتباع العلم وما يقرب إلى الله عزوجل طوبى لهم وحسن مآب»^(١٨).

١) **الولاء لأهل البيت(ع)**: عن أبي الحسن(ع): «شيـعـتنا الـذـين يـقـيـمـون الصـلاـة وـيـؤـتـون الزـكـاـة وـيـحـجـون الـبـيـت الـحـرـام وـيـصـوـمـون شـهـر رـمـضـان وـيـوـالـون أـهـل الـبـيـت وـيـتـبـرـؤـون مـن أـعـادـهـم»^(١٩).

وعن الصادق(ع): «كذب من زعم أنه من شيعتنا وهو متمسك بعروة غيرنا»^(٢٠).

ب) توطين النفس على العمل: إن الولاء في مدرسة أهل البيت ليس مجرد كلمات يلوّكها الإنسان بين لخيه، وإنما هو التزام وعمل دؤوب في اتجاه إقامة الدين في النفس والمجتمع. لذلك أكد الإمام(ع) على قيمة العمل وجعلوه المحكّ الحقيقـي لصدق المـوالـين، لأن الإيمـان ما وـقـرـفـي القـلـبـ وـصـدـقـهـ العمل: عن أبي جعفر(ع)، قال: يا جابر، أكتفي من اتخذ التشـيـعـ أن يقول بـحـبـنـاـ أـهـلـ الـبـيـتـ! فـوـالـلهـ ماـ شـيـعـنـاـ إـلـاـ مـنـ اـتـقـىـ اللهـ وـأـطـاعـهـ، وـمـاـ كـانـوـاـ يـعـرـفـونـ

إلا بالتواضع والتخشُّع وإداء الأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلوة والبر بالوالدين والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكفّ الالسن عن الناس إلا من خير(...). قال جابر: يابن رسول الله ما نعرف أحداً بهذه الصفة، فقال لي: يا جابر لا تذهبين بك المذاهب، أحسب الرجل أن يقول: أحبّ علياً صلوات الله عليه وأتولاه، فلو قال: إني أحبّ رسول الله(ص) ورسول الله(ص) خير من علي ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته ما تفعه حبه إيه شيئاً فاتقوا الله واعملوا لما عند الله ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبّ العباد إلى الله وأكرمهم عليه أتقاهم له واعملهم بطاعته، يا جابر ما يتقرب العبد إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة، ما معنا براءة من النار ولا على الله لاحد منكم حجة، من كان الله مطيناً فهو لناولي ومن كان الله عاصياً فهو لنا عدو، لا تقال ولا يتنا إلا بالعمل والورع»^(٢١).

ج) - مخالفة الأهواء: إن جدلية الصراع النابع من صميم الذات الإنسانية هي أساس حركة الذات في تكاملها ورقتها المعنوية، والشخصية المؤمنة في المنهج السلوكي، لأهل البيت(ع) هي التي تسعى جاهدة للالتصار لنداء العقل والإيمان والجام النفس الأمارة وأهوائهما.

عن أبي عبدالله(ع): «وَاللَّهُ مَا شَيْءَ عَلَيْنَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ عَفْتُ بِطْنَهُ وَفَرْجَهُ وَعَمَلَ لَخَالِقَهُ وَرَجَا ثَوَابَهُ وَخَافَ عَقَابَهُ»^(٢٢).

د) الاستعداد الدائم للبلاء: إن طبيعة الدور المنوط بعهدة المؤمن في الحياة يجعله عرضة لأنواع شتى من المحن والابتلاءات التي تمثل إحدى العناصر الإيجابية في خط الترقى والتكامل المعنوي، «إِنَّمَا أَحَبُّ النَّاسَ أَنْ يَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ». «إِنَّمَا حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتُكُمْ مِّثْلُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِمُ الْبَاسَاءَ وَالضَّرَاءَ وَزَلَّلُوا حَتَّى يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ»^(٢٣).

عن أبي عبدالله(ع): إن الله عز وجل جعل ولئه في الدنيا غرضاً لعدوه». وعنـه(ع): «إِنَّ الْبَلَاءَ أَسْرَعَ إِلَى الْمُؤْمِنِ التَّقِيِّ مِنَ الْمَطَرِ إِلَى قَرَارِ الْأَرْضِ»^(٢٤).

وعن أبي جعفر(ع): «... لم يؤمن الله المؤمن من هواه الدنيا، ولكنه أمنه من العمى فيها والشقاء في الآخرة»^(٢٥). ومستويات المحن تتناسب طردياً مع درجات الإيمان. عن أبي جعفر(ع): «إنما يبتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه»^(٢٦).

هـ) العلاقات الرسالية: إن عنصر الإيمان ليس مجرد إضافة كمية إلى أطراف العلاقات الاجتماعية، بل هو عنصر نوعي يقلب هذه العلاقات رأساً على عقب فلا تبقى المصالح أساساً للروابط الاجتماعية، وإنما تغدو طاعة الله ومرضاته هي أساس هذه المعاملات. فالإيمان هو الأكسير الذي يقلب هذه العلاقات إلى تواصل ملؤه الحب والمودة: «إن المؤمن ليسكنا إلى المؤمن كما يسكن الظمان إلى الماء البارد»^(٢٧).

وعن محمد بن عجلان قال: كنت مع أبي عبدالله(ع)، فدخل رجل فسلم، فسألته: كيف من خلقت من إخوانك؟ فأحسن الثناء وزكي وأطري فقال له: كيف عيادة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال: قليلة. قال: كيف مواصلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم؟ فقال: إنك تذكر أخلاقاً ماهي فيمن عندنا، فقال: فكيف يزعم هؤلاء أنهم شيعة لنا»^(٢٨).

إن الحديث السابق ينسف كل الحواجز المادية والاعتبارات الزائلة التي تفصل بين المؤمنين لتجعل منهم كتلة متراسمة يجد كل فرد فيها نفسه مسؤولاً عن أخيه. وعن أبي عبدالله(ع) قال: «لقضاء حاجة أمرئ مؤمن أحب إلى من عشرين حجة ينفق فيها صاحبها مئة ألف»^(٢٩). وعن مهزم الأسدي ... وإذا لجأ إليهم ذو حاجة رحموه، لن تختلف قلوبهم، وإن اختلفت بهم الدار»^(٣٠).

إن روحية الرحمة والإيثار تتعدى دائرة المؤمنين لتشع على كل الناس فيصبح المؤمن سندًا لكل محتاج وعوناً لكل مستضعف. عن رسول الله(ص): «الآنئكم لم يسمى المؤمن مؤمناً؛ لأنّه اطمأن الناس إليه على أنفسهم وأموالهم، إلا أنئكم من المسلمين، المسلم من سلم الناس من يده ولسانه..»^(٣١). وعن

السكوني عن أبي عبدالله(ع) قال: «إن أعظم الناس منزلة عند الله يوم القيمة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه»^(٣٢). وفي وصية أمير المؤمنين(ع) لولديه: «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً».

و) مقارعة الظلم والظالمين: إن المؤمن الذي انتقم بحبل الله العادل يجد نفسه في قطيعة وجданية وسلوكية مع الظلم، مهما كانت تجلياته، فهو يسعى للعدل في النفس والحياة والمجتمع.

والائمة(ع) حَرَضُوا شيعتهم على محاربة الظلم والتسلح بالقوة لمواجهة الظالمين والصبر في ساحات الصراع. عن مهزم الأسدى قال أبو عبدالله: «... شيعتنا من لا يهْرِ هرير الكلب، ولا يطمع طمع الغراب، ولا يسأل عدونا وإن مات جوعاً»^(٣٣). وعن أبي جعفر(ع): «المؤمن أعز من الجبل، الجبل يستقل منه والمؤمن لا يُستَقَلُ من دينه شيئاً». وعن أبي عبدالله(ع): «إن المؤمن أشد من زبر الحديد، إن الحديد إذا دخل النار تغير وإن المؤمن لو قُتِلَ ثم نُشر ثم قتل لم يتغير قلبه»^(٣٤).

ز) التعالي عن ردود الأفعال: المؤمن، في إطار منهج أهل البيت، يتمتع بشخصية متوازنة تتحرك وفق ثوابت رسالية لا تنفعل بالحالات الشعورية التي يعيشها الإنسان، من فرح وحزن ورضى وغضب.. كما لا تتأثر بموافقات الآخرين أحسناً أم أساواً. فهو يعطي من حَرَمه، ويفعل عَمَّ ظلمه، ويصل من قطعه، لأنَّ شمس تشرق على من يستحق ومن لا يستحق: وعن الصادق(ع): «اصطنع المعروف إلى من هو أهله، وإلى من ليس بأهله، فإن لم يكن أهله فأنت أهله»^(٣٥).

عن رسول الله(ص): ثلاث خصال من كن فيه استكملاً خصال الإيمان، إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل وإذا غضب لم يخرجه الغضب من الحق وإذا قدر لم يتعاط ما ليس له»^(٣٦).

ح) التسليم والرضا: إن سعادة المؤمن والطمأنينة التي تعمّر قلبه

وتملاً جوانبه، رغم أجواء المحن والشدائد التي تحيط به تتبعه أساساً من التسليم لله والرضا بقدرها. فيرى في كل ما يقع خيراً له، فلا يفزع ولا يجزع، مرجعه في ذلك الشعار الزييني الخالد، «وما رأيْتَ إلَّا جميلاً».

عن أبي عبدالله(ع): «يا فضيل: إن المؤمن لو أصبح ما بين المشرق والمغارب كان ذلك خيراً له، ولو أصبح مقطعاً أعضاؤه كان ذلك خيراً له، يا فضيل بن يسار: لا يفعل بالمؤمن إلا ما هو خير له»^(٣٧).

إن المؤمن وطن نفسه على أنه جندي في ساحات الكذ والكذ يرتضي الموقع والدور المناسب إليه ما دام في ذلك مرضاه لله، وهو لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، ويستوي حينئذ البلاء والرخاء، بل ربما يفضل أجواء المحن والابتلاءات لأنها توحى بدور أعظم ودرجة أفضل عند الله. عن أبي عبدالله(ع): «لن تكونوا مؤمنين حتى تكونوا مؤتمنين وحتى تدعوا نعمة الرخاء مصيبة، وذلك أن الصبر على البلاء أفضل من العافية عند الرخاء»^(٣٨).

عند ذلك يتحرر المؤمن من قيود الخوف: الخوف من الفقر، الخوف من الموت، والخوف من الطفاة والجباية.. بل تصبح الأشياء تخافه لشدة بأسه وقوته. عن أبي عبدالله(ع): «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مَنْ يَخَافُ كُلُّ شَيْءٍ وَذَلِكَ أَنَّهُ عَذِيرٌ فِي دِينِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَامٌ كُلُّ مُؤْمِنٍ»^(٣٩).

خصائص المنهج:

إن المتتبع لأصول المنهج السلوكي، عند أهل البيت، كما حاولنا استكشافه يلحظ امتيازه عن الاتجاهات الوضعية في علم النفس وعلوم التربية، وعن نظريات هذه المدارس حول السلوك وبناء الشخصية. وأهم خصوصيات منهج أهل البيت هي:

١ - الانطلاق من الداخل إلى الخارج: على خلاف العديد من النظريات

في علم النفس وعلم الاجتماع التي تعتقد أن تحقيق سعادة الإنسان كفيل بتوفير العناصر المادية الضرورية وضمان الحاجات الفيزيولوجية له^(٤٠)، فإن مدرسة أهل البيت أكدت أن التحرر الداخلي هو أساس بناء الشخصية، وأن تحرر النفس من قيود الهوى وسيطرتها على الشهوات والغرائز هو الخطوة الأولى في اتجاه بناء الذات الرسالية التي تعيش حالة السعادة الحقيقة.

والتحرر الداخلي هو الدافع الأساسي للتحرر من كل الأغلال والقيود الاجتماعية والسياسية التي قد تصادر حرية الفرد وكرامته وعزته. يقول الشهيد الصدر: «وهذا التحرر الداخلي أو البناء الداخلي لكيان الإنسان، هو في رأي الإسلام، حجر الزاوية في عملية إقامة المجتمع الحر السعيد، فما لم يملك الإنسان إرادته ويسيطر على موقفه الداخلي ويحتفظ لإنسانيته المهدبة بالكلمة العليا في تقرير سلوكه لا يستطيع أن يحرر نفسه في المجال الاجتماعي تحريراً حقيقياً يصمد في وجه الإغراء، ولا أن يخوض معركة التحرير الخارجي بجدارة وبسالة، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...»^(٤١).

٢ - **تلبية الحاجات الواقعية للإنسان:** إن المنهج المطروح، على بساطته ووضوحه، يلبي الحاجات الواقعية للإنسان حتى تلك التي تُنادي بها البحوث الحديثة في علم النفس. ولئن كان بعض المفكرين الإسلاميين لا يتفق مع هذه النظريات فيما تعرف به من حاجات: حاجة الانتفاء، وال الحاجة إلى الحب والتقدير الاجتماعي، ويعتبرها من إفرازات التحاليل الأرضية التي قطعت صلة الإنسان بالله فصارت بحاجة إلى مثل هذه الارتباطات وال حاجات^(٤٢).

لكننا، بتتبع نصوص الأئمة(ع)، نراهم رغم تأكيدهم على العلاقة بالله وجعلها أساس البناء التربوي (كما حملنا ذلك سابقاً) وأنها كفيلة بتحقيق التوازن النفسي للمرء وتلبية حاجاته النفسية «يا فضيل بن يسار، إنه من كان

همه هما واحداً كفاه الله همه، ومن كان همه في كل واد لم يبال الله بأي واد هلك»^(٤٣)، «يا فضيل، ما على رجل عرف هذا الأمر لو كان على جبل حتى يأتيه الموت»^(٤٤).

رغم كل ذلك نراها تترك الحاجات النفسية المشار إليها وإنما حاولت معالجتها في إطار الإيمان باله وداخل منظومة الاعتقاد الديني لا خارجها، على عكس الأطروحات المادية الأرضية التي تعتبر أن تلك الحاجات أصلية وأن تحقيقها لوحدها كفيل بضمانت التوازن. فحاجة الانتقام يكون إشباعها الواقعي من خلال الارتباط الوعي بالله سبحانه وتعالى.

والحاجة للحب يحاول المنهج توفيرها انطلاقاً من العلاقات الرسالية وروح الإباء والصفاء التي تشع من خلالها: «إن المؤمن ليسكن إلى أخيه المؤمن كما يسكن الظمان إلى الماء البارد».

والأحاديث التي تعظم منزلة المؤمن وترفع من شأنه والتي يمكن اعتبارها إستجابة لحاجة التقدير: «شييعتنا ينظرون بنور الله، ويتقلبون في رحمة الله، ويقوزون بكرامة الله»^(٤٥)

وعن رسول الله(ص): «إن حديث آل محمد صعب مستصعب، لا يؤمن به إلا ملك مقرب، أونبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان»^(٤٦).

بل يمكن أن نعتبر المنهج، برمته، وبما طرحه من تفصيلات محاولة لتشكيل هوية المؤمن وإطاراً توجيهياً له في الوقت نفسه، وكلاهما (الهوية والإطار التوجيهي) من الحاجات الإنسانية الضرورية عند فروم^(٤٧).

٣ - وسطية المنهج: نص الإمام الصادق على هذه الوسطية في قوله لفضيل بن يسار: «يا فضيل بن يسار، إن الناس أخذوا يميناً وشمالاً، وأنا وشييعتنا هدينا الصراط المستقيم»^(٤٨).

ولعل من أبرز مظاهر هذه الوسطية التوفيق بين حاجات الفرد و حاجات المجتمع. هذا التوفيق الذي مثل تحدياً صارخاً لكل المدارس الاجتماعية

والتربيوية ونظرياتها؛ حيث لم تتحقق النجاح الحاسم في الإجابة وتحقيق المعادلة بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع.

أما الطرح الإسلامي الذي يتجلّى في منهج أهل البيت(ع) فإنه، وانطلاقاً من الفهم المعنوي للحياة، المنبثق من القاعدة العقائدية للإسلام يجعل من الحياة الدنيا مرحلة ورحلة تكامل وكذا وجهاد في اتجاه النشأة الأخروية الخالدة، فتغدو كل التضحيات وكل التنازلات من أجل الآخرين عملاً للحساب الشخصي أيضاً، إضافة إلى كونه سبيلاً للذة المعنوية بوصفه طريقاً لمرضاة الله.

إن التعارض الموهوم بين الفرد والجماعة يتهاوى في إطار هذا التحليل الواقعي للحياة... الذي يمنح للإنسان آفاقاً واسعة للعمل والتواصل مع الآخرين، والسعى نحو نفعهم والتضحية لأجلهم تحت مظلة حب الله وطاعته، من دون أن تصادر كل تلك التضحيات لذتها الخاصة ومنفعته الشخصية في نهاية الطريق.

٤ - واقعية المنهج: تستشف هذه الواقعية في غير مظهر، ولكن نكتفي هنا بنقطتين مركزيتين:

١ - تناغم المنهج مع التركيبة النفسية والعقلية للإنسان، وإقراره لكل الحاجات الإنسانية، الحاجات الشخصية الفيزيولوجية: (الطعام، الشراب، الجنس) والتي حرص الأئمة أن يكون إشباعها في نطاق العقل والإيمان من دون الانغماس فيها، لتغدو قيداً يصادر حرية الفرد «بئس المؤمن رغب بذلك». وال الحاجات المعرفية العقلية، وال الحاجات الاجتماعية، ورأينا كيف يضممن المنهج، من خلال توجيهاته، هذه الحاجات قصد تحقيق بناء الذات المؤمنة المتوازنة.

٢ - إقرار الأئمة أن السير في اتجاه هذا المنهج دور صعب محفوف بالشدائد، لما جبت عليه النفس من الركون إلى الراحة والدعة، ولما يتسم به

المنهج من معالجات جذرية تتطلب معايدة طويلة الأمد لذلك فإن السائرين معرّضون للانتكاسات:

عن أبي عبدالله(ع): «المؤمن صنفان: فمُؤمن صدق بعهد الله ووفى بشرطه، وذلك قول الله عز وجل: «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه..»، وذلك الذي لا تصيبه أهوال الدنيا وأهوال الآخرة وذلك من يشفع ولا يشفع له، ومُؤمن كخامة الزرع تعوج أحياناً وتقوم أحياناً، وذلك من تصيبه أهوال الدنيا وأهوال الآخرة، وذلك من يشفع له ولا يشفع»^(٤٨).

وفي دائرة هذا الضوء نتفهم الأحاديث التي وردت واصفة المؤمنين بالقلة والتدرة.. تأكيداً لهذا المعنى: وعورة الطريق... وحجم التحديات فيه «المؤمنة أعز من المؤمن، والمُؤمن أعز من الكبريت الأحمر، فمن رأى منكم الكبريت الأحمر؟»^(٤٩).

المنهج سبيل النجاة:

إن المنهج السلوكي لمدرسة أهل البيت يختزن، داخله، كل المقومات الضرورية لصنع الإنسان النموذجي الذي يتتوفر على كل الكمالات الروحية والمعنوية، والذي يعيش التوازن النفسي في أجل مظاهره.

إن المنهج يصنع الذات القادرة حقاً على الفعل الإيجابي داخل ساحات البناء الحضاري والتغيير الاجتماعي. وبالتالي يضمن السعادة التي تاه الإنسان شرقاً وغرباً باحثاً عنها يمنة ويسرة، وقد غاب عنه أنها تنبع أساساً من داخله بالانفتاح الوعي على الله وتحقيق العدالة الكاملة في نفسه والالتزام المسؤول بخط الطاعة والحب والولاء لله في السلوك. إن المنهج هو صورة أخرى من تجليات عظمة مدرسة أهل البيت التي تطرح للبشرية خط الحياة والسعادة الأبدية، خطأ ينتصر للعقل والعاطفة معاً، ويصهر مصالح الفرد والجماعة في بوتقة واحدة ويكرّس القيم الإنسانية الخالدة.

**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا
يُحِبُّكُمْ﴾^(٥٠)**

اللهُمَّ امْشِ

(١) أريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظاهر: سلسلة عالم المعرفة، ص ١٤٠

(٢) م.ن.

(٣) محمد بن يعقوب الكليني، أصول الكافي: ١/٦٧، ح ١٧

(٤) م.ن.: ١/٦٤، ح ١٤

(٥) م.ن.: ١/٦٩، ح ٢٤

(٦) م.ن.: ١/٩٤

(٧) م.ن.: ١/٩٤، ح ٣

(٨) م.ن.: ٢/٧٩، ح ٨

(٩) م.ن.: ٢/٧٩، ح ٩

(١٠) م.ن.: ١/٢٣٥، ح ١٥

(١١) سورة التوبة، الآية: ٧٢

(١٢) ميزان الحكمة، ج ٦، ص ١٨

(١٣) أصول الكافي: ١/١٩٢، ح ١

(١٤) م.ن.: ٢/٢٢٠، ح ٢٠

(١٥) صفات الشيعة للصدوق، ح ٤٠

(١٦) ارتقاء القيم، سلسلة عالم المعرفة، ص ٦٤

(١٧) أصول الكافي، ج ١

(١٨) صفات الشيعة للصدوق، ح ٦٦

(١٩) م.ن.، ح ٥

(٢٠) م.ن.، ح ٤

(٢١) م.ن.، ح ٢٢

(٢٢) م.ن.، ح ١٢

(٢٣) سورة العنكبوت، الآية: ١ و ٢. سورة البقرة، الآية: ٢١٤

(٢٤) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٤٩ و ٢٥٠

(٢٥) م.ن.، ج ١، ص ٢٥٣

(٢٦) م.ن.، ج ١، ص ٢٥٢

- (٢٧) م.ن، ج١، ص ٢٤٦.
- (٢٨) صفات الشيعة، ح ١٣.
- (٢٩) أصول الكافي، ج١، ص ١٩٩.
- (٣٠) م.ن، ج١، ص ٢٣٩.
- (٣١) صفات الشيعة، ح ٤٢.
- (٣٢) أصول الكافي، ج١، ص ٢١٢.
- (٣٣) م.ن، ج١، ص ٢٣٩.
- (٣٤) صفات الشيعة، ح ٤٧.
- (٣٥) مستدرك الوسائل، ج ١٢ ص ٣٤٨.
- (٣٦) أصول الكافي، ج١، ص ٢٣٩.
- (٣٧) م.ن، ج١، ص ٢٤٤.
- (٣٨) صفات الشيعة، ح ٥٣.
- (٣٩) م.ن، ح ٥٣.
- (٤٠) برتراندرسل سبيل السعادة.
- (٤١) سورة الرعد، ١١.
- (٤٢) د. محمد البستانى، دراسات في علم النفس الإسلامى.
- (٤٣) أصول الكافي: ١/٢٤٤، ح ٤.
- (٤٤) صفات الشيعة، ح .
- (٤٥) أصول الكافي، ج١، ص ٤٦٦.
- (٤٦) الإنسان بين الجوهر والظاهر، سلسلة عالم المعرفة.
- (٤٧) أصول الكافي، ج١، ص ٢٤٤.
- (٤٨) م.ن، ج١، ص ٢٤٦.
- (٤٩) م.ن، ج١، ص ٢٤٢.
- (٥٠) سورة الانفال، الآية: ٢٤.

جامعة تطوير علوم إسلامي